المبحث الثالث

نحو رؤية إسلامية– مسيحية مشتركة لطبيعة العلاقة والدور في بناء الدولة العربية الحديثة (٢)

د. عماد جاد*

بدأت جذور المشكلة في المجتمع المصري بعد رحيل عبد الناصر، ومجيء السادات، الذي شعر بالفرق في التأثير والسيطرة، فاعتمد على عدد من الأوراق، وكانت إحداها وأهمها على المستوى الداخلي ورقة الدين، وبعد مجيء مبارك، حافظ على سياسة سَلَفه، بل وتميز بها أكثر، فاختزل المسيحية في الكنيسة، وساهم في صنع مفهوم "الإسلاموفوبيا"، وحصر العلاقة بين قُطبي المجتمع بين رأس النظام ورأس الكنيسة.

وفي الوقت نفسه كان هناك توافق بين رأس النظام ورأس الكنيسة على تحييد النخب المدنية المسيحية عن الميدان العام، وأحداث انتخابات عام ٢٠٠٥ أكبر شاهدٍ على ذلك؛ حيث كان التزوير من قِبل النظام، والتعيين من قبل الكنيسة لممثل المسيحيين في المجلس.

كما لعب التدين الشكلي، الذي هو نتيجة الجهل والأمية، دوراً في تلك الحالة، وبالتالي فإننا عندما نقول إن المسيحيين كانوا بحماية النظم الحاكمة فهي في الحقيقة علاقة بين رؤوس الهيمنة الروحية ورؤوس الهيمنة السياسية، تلك المعادلة التي حاولنا بكل الطرق تحدّيها، إلا أنها كانت أكبر من أي محاولات.

إن تراكمات أعمال العنف المتبادل والصور النمطية التي رسمت في الأذهان تهدد الأجيال القادمة، ولكن وبالرغم من ذلك فإني أتفق مع الرأي القائل بأن

* باحث ومحلل سياسي– مركز الأهرام للدراسات– مصر.

الأجيال الجديدة من المسيحيين ومن الإخوان المسلمين يمكنها التأثير على المناخ الطائفي والثقافة الطائفية وإزالة التوتر والاحتقان التي أنشأها النظام واستغلها، بل هنالك اتهام صريح لوزير داخلية مبارك بتنفيذ تفجير كنيسة القديسين في الإسكندرية، والذي ما إن حصل حتى هُرعت المطافي لإخماده، وإزالة آخر أدلة على تورطه، ثم سارع إلى اتهام جماعة إسلامية من غزة، تلك الأحداث وغيرها التي جعلت من عام ٢٠١١ عام غليان واحتقان في المجتمع المصري.

ومما يدل على نضج الشباب المصري المسيحي وتمرده على حالة العبث في الشارع المسيحي من قِبل النظام، أنهم قاموا بطرد ممثل مبارك من داخل الدير الذي كانت تتم فيه الصلاة على ضحايا أحداث حمّادي عام ٢٠١٠، بل وتمت مقاطعة البابا شنودة نفسه، بكل ما له من حضور لدى المسيحين، عدة مرات للهجوم على نظام مبارك والتنديد به، حتى وصلنا إلى ٢٥ يناير حيث التحم ذلك الجيل الجديد بكل مكوناته، رغم تردد المؤسسات الدينية لخوفها من تراجع الشباب قبل تحقيق أي نتائج ملموسة، بل أصدر بعضهم بيانات تأييد لمبارك خوفاً من بطش نظامه.

وتتالت الأحداث بعد ذلك، وسقط نظام مبارك وسيطر العسكر الذي نَعُدّه امتداداً لحكم مبارك، بل من أسوأ الفترات بالنسبة للمسيحيين والعلاقة بينهم وبين المسلمين، ثم ولّت تلك الفترة أيضاً، واليوم نحن نعيش في فترةٍ أفضل عشرات المرات من مرحلة السادات ومرحلة مبارك وفترة حكم المجلس العسكري، ورغم بعض الحوادث البسيطة في بداية حكم الدكتور محمد مرسي إلا أن التدخل كان سريعاً، ويبقى الرهان الآن على الجيل الجديد كما أسلفنا، وعلى مدى تحقيق وعود الرئيس الجديد وحكومته.

التعقيـــب*

يُلاحظ من الأوراق التي قُدّمت والتجارب التي رُويت، أن هناك اختلافاً بيّناً واضحاً بين وضع المسيحيين والمسلمين وعلاقاتهم بين الدول، فهنالك فرق بين لبنان ومصر والأردن وغيرها من الدول العربية، صحيح أن ثقافتنا، مسلمين ومسيحيين، يحملها أحياناً جهلةٌ من الطرفين، إلا أننا جميعاً ضحية تخطيط سياسي قامت عليه أنظمتنا ودولنا عبر عقود من الزمن، هدفها من ذلك هو خلق نوع من أنواع الصراعات المختلفة، ليست إسلامية- مسيحية بل إسلامية- إسلامية، ومسيحية- مسيحية، وحزبية وطائفية وأنواع كثيرة جداً، هدفها إشغال المجتمعات بخلافات يسيرة من أجل أن تنفرد برسم السياسات التي تريد.

الشعوب هي دائماً ضحية، بدليل أن النظام لم يفصل في أي حادثة من هذه الحوادث، ففيما يتعلق بقضية التطرف الذي نشأ في الدول العربية والإسلامية أعتقد أنها امتداد لمثل هذا النوع من السياسة التي فُرضت على شعوبنا وأصبحت هي ثقافة من ثقافاتنا، ولذلك نشأ التطرف بأشكاله المتعددة المختلفة من الجهتين، لكن الجميع يعلم أن هنالك من الطرفين جهات واعية مثقفة تعالج قضاياها بطريقة علمية، نستطيع أن نقول هنالك الإخوان المسلمين في العالم العربي والإسلامي، ونستطيع أن نقول هنالك تنظيمات مسيحية موجودة، فعلينا محاربة ومقاومة التطرف على اختلاف أنواعه ومصادره.

أعتقد أن أكثر رسالة تطمين أعلنها الإسلاميون في كل العالم العربي والإسلامي هي حينما أعلنوا أن الدولة دولة مدنية وليست دولة دينية، ولا

* د. أمين القضاة/ عميد كلية الشريعة- الجامعة الأردنية.

يخفى عليكم أن إسرائيل حينما أعلنت أنها تريد أن تقيم دولة يهودية فإن الجميع يعرف ما هي الدولة اليهودية، وما هي الآثار التي ستترتب عليها، لكنّ الإسلاميين في العالم العربي لم يعلنوا دولة إسلامية، بل أعلنوا أنها دولة مدنية ذات مرجعية إسلامية، وأنا أشكر الأب يوحنا قلته حينما قال: ليس عندنا أي مشكلة في أن تكون المرجعية هي الشريعة الإسلامية، لأن ٩٥٪ من الناس مسلمون، والشريعة الإسلامية ضَمِنت حقوق غير المسلمين ومواطنتهم على اختلاف دياناتهم، وأودّ هنا التذكير بنص نعتمده من ثوابتنا، وهو أنه حينما نزل الرسول- صلى الله عليه وسلم- المدينة المنورة كان في المدينة يهود، وحينما أسّس الدولة كان أحد بنود الوثيقة التي كتبها صلى الله عليه وسلم يقول: "يهود بني عوف أمة واحدة مع المسلمين"، يهود بني عوف هم عرب، وإذن، فقد أقام الرسول- صلى الله عليه وسلم- أمة بالتعاون والتشارك معهم، فكيف لا نقيم مثل هذا التعاون والتشارك على أساس هذا النص الشرعي، ونحن، المسلمين، لا نستطيع أن نخرج عن النصّ الشرعيّ مهما كانت قضايانا السياسية.

إذن، هنالك مشكلة تتمثل حقيقةً في أن النظرة إلى بعض المواقف والتصريحات من المسلمين هي نظرة واحدة، مع أن هناك اختلافاً كما قلت، حيث توجد جماعات إسلامية خرجت عن ثوابت الإسلام، فاعتماد نظرة واحدة لموقف الإسلاميين من خلال تصريحات أفراد وجماعات لا تلتزم بحقيقة الإسلام يجعل الحكم على الإسلاميين حكماً جائراً، لا سيما أن أولئك الأفراد وتلك الجماعات ليست هي القوة الأساسية الموجودة على الساحة الإسلامية والعربية، بل هي قوى ضعيفة ومعزولة شعبياً وإن لجأت للعنف في بعض الأحيان.

وأود أن أشكر الدكتور رياض جرجور على التحليل العلمي الذي قدّمه، وهنالك مقترحات ممتازة ذكرها في ورقته، وقد ركّز فيها على قضية دعوة الغرب إلى هجرة المسيحيين، وهذه قضية يجب أن نقف عندها كثيراً لأن ثمّة مخططاً غربياً فعلاً، وليس هو للقضاء على فكرة التنوع فقط، كما ذكر الدكتور رياض جرجور، بل بهدف إضعاف الأمة جميعاً، حيث إننا نعتقد أن للمسيحيين دوراً مهماً في المجال الاقتصادي والعلمي والاجتماعي والثقافي في بلاد المسلمين، وبالتالي حينما نشجع هؤلاء الناس على الهجرة وترك أوطانهم فإننا نُسهم في إضعاف هذه الأمة ثقافياً واقتصادياً وعلمياً، وليس مجرد سلب للتنوع الذي يعيشونه هم.

وذكر الدكتور جرجور أيضاً أنه يجب على المسيحيين أن يضعوا مستقبلهم بأيديهم، وهي دعوة رائدة ومتطورة، وأشكره عليها، ويجب أن ننتبه إليها حتى لا يستقوي مسيحيو العرب بالغرب على المسلمين والهدف واضح، وبالتالي حينما يضعون أمورهم بأيديهم فإنهم سيجدون الأبواب مفتّحة لهم، بل سيجدون أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

وفي ورقة الأستاذ هشام جعفر رأيت ثمّة عدداً من المقترحات المهمة جداً، وأهمها منح الشباب دوراً أكبر، ونحن بحاجة ماسة الآن إلى أن تُنقل حواراتنا من الأكاديميين والنخبة ورجال الدين والعلماء، مع احترامنا لهم وتقديرنا لأفكارهم وحكمتهم وتجاربهم وخبراتهم، إلى الشباب الذين يحملون رؤى إيجابية جداً في هذا المجال، والتجارب التي خاضوها، سواءً في مصر أو غيرها، كفيلة بأن تثبت حقيقة هذا الأمر، وأعتقد أنه آن الأوان أن يصل الربيع العربي فعلاً إلى المؤسسات الدينية على اختلافها، سواء إسلامية أو مسيحية، نحو تحقيق نوع من أنواع التوعية الثقافية المجتمعية في هذا المضمار.

المداخلات والمناقشات

د. عبد اللطيف عربيات (رئيس الجلسة)

نحن كأمةٍ واحدة، لا توجد عندنا مشكلة في بناء مجتمع المواطنة الحقيقي الذي ندعو إليه جميعاً، وعندما نقول ذلك لا نبتدع شيئاً، ولا نأتي بجديد، بل نؤكد ونؤشر بوضوح إلى وثيقة المدينة، وثيقة رسول الله- صلى الله عليه وسلم - التي وضعها عند قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وأزعم أن هذه الوثيقة أول وثيقة وأول دعوة إلى مجتمع المواطنة في التاريخ، ولم يكن قبلها أي دعوة لأن يكون هناك مجتمع مواطنة بمفهومه الحقيقي، ثم يكون هناك أول مجتمع ينتخب رئيسه انتخاباً شعبياً من جميع الطبقات، وهو ما حصل مع الخليفة المسلم الأول أبي بكر الصدّيق.

أنقل عن الفيلسوف الألماني الدكتور مراد هوفمان، من محاضرةٍ له قال فيها: "إن أول رئيس جمهورية منتخب في العالم شعبياً كان أبو بكر الصديق، فحتى ذلك التاريخ لم تكن المرأة في النظام اليوناني من الطبقة التي يَحق لها أن تنتخب وأن تشارك في الانتخاب، أما في انتخاب أبي بكر فقد أُخذِت بيعة الرجال وبيعة النساء"، فما أحوجنا أن نبلور ونوضح الحقائق بيننا.

نحن نؤمن أن المجتمع مجتمع مواطنة وأن حقوق إخواننا المسيحيين هي حقوق أصيلة وليست من باب الادعاء أو من باب المِنَح، بل هي فريضة شرعية، والفريضة الشرعية ليست أن تأخذ حقك فقط، بل أكثر من ذلك، يقول الله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم)، ويمكن تفسير ذلك بأن نقول: أن تبروهم وتعطوهم حقهم كاملاً غير منقوص، والبر هنا لما يعطي للوالدين، والوالدان أعز ما في الدنيا كلها، وبر الوالدين على رأس هذا البر، ثم يعطى لإخواننا المسيحيين (أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين).

هذا الكلام في كل الأحوال، ولسنا بحاجة إلى إثباته، ومن يخرج عن هذه النصوص فإنه يخرج عن المِلّة، ويخرج عن الدين، لأنها واجبة التطبيق، كما يقول الله تبارك وتعالى: (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) تخصيصاً.

إن كل السلوك التاريخي، وكل ما كتب في التراث يمكن أن يؤخذ منه ويرد عليه، كما قال الإمام مالك رضي الله عنه: "كلٌّ يؤخذ من كلامه ويُردّ عليه، إلا صاحب هذا القبر" يعني الرسول- صلى الله عليه وسلم-"، وكلام رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ثابت لا يُقبل الشك فيه، وميثاق المدينة امتثال للآيات القرآنية التي لا تناقَش، ونحن أيضاً ملزمون بتطبيق هذه النصوص.

الشريف فواز شرف

إن المسيحيين العرب في هذه البلاد، بلاد العرب، هم أبناء العرب، وهم أبناء الوطن، وهم ليسوا أقلية، وليسوا عالة، هم جزء لا يتجزأ من هذا المجتمع العربي، والنظرة التاريخية مرفوضة الآن، طالما أن الأغلبية أقرت أن هذه النظرة القديمة هي غير مهمة، ما يهمنا الآن هو الربيع العربي، وماذا نستطيع أن ننتج من خلاله من مناخ جديد يُعتبر فيه المواطن واحد، سواء أكان مسلماً أو مسيحياً، والدولة الوطنية هي الوسيلة الوحيدة للقيام بهذا العمل.

يجب على الإخوان المسلمين بالذات، والذين لعبوا دوراً مهمّاً جداً في الثورة المصرية، تجاوز مشكلة المسلم والمسيحي، أي إن رسالة الإخوان المسلمين من هذه الندوة تصبح رسالة إسلامية، لكنها تحمل واجب التعامل الإسلامي- المسيحي وقيادته وإيجاد الفكرة التي تؤدي إلى ذلك، ولذا على الإخوان المسلمين تبني التعاون والمحبة والصدق بين المسلمين والمسيحيين كواجب ديني واجتماعي وليس كواجب حزبي وحسب.

ماذا بعد هذا الاجتماع؟ أرى أن الدور الأساسي يقع على الإخوان المسلمين، وهو دور الربط والتبني للمسيحيين، وبناءً عليه، ينبغي أن يكون لهم موقف واضح مما يسمى بالحركات المتطرفة المتشددة.

د. غسان عبد الخالق

أتحفظ هنا على أسطرة الربيع العربي، خاصةً في خطابات إخواننا المصريين، فثورة ٢٥ يناير بلا شك أنها رافعة من الروافع المهمة جداً، والتي نرجو أن تؤدي إلى تحرير المجتمع المصري من ربِقة الاستعباد وما إلى ذلك.

لكنني أرى في المقابل مبالغة في تحميل الكثير من الآمال والتطلعات التي رأيناها في ٢٥ يناير ضمن تلك المشاهد الرومانسية في العلاقة بين فئات المجتمع، وكيف أن مسلماً اصطف إلى جانب المسيحي، إذ إن الكلام في ذلك قد يكون شكلاً من أشكال المبالغة والأسطرة، لأن ٢٥ يناير مدخل، ولا أعتقد بأن بإمكاننا أن نقترض من هذا الرصيد إلى ما لا نهاية، لأن سقف ٢٥ يناير مرتفع في العلاقة الحميمية بين المجتمع، ولكن لا يمكن أن نستمر أو أن نراهن على الاقتراض منه عملياً، لأن الأمر يدفعنا نحو عملية بناء جديدة لعهد جديد ونظام جديد ولدولة حديثة، ويفترض أن نفكر في هذا الاتجاه.

د. أحمد سعيد نوفل

إن أي مراقب يطرح الموضوع بهذه الطريقة يأخذ انطباعاً بأن ثمة تمييزاً فعلياً ضد المسيحيين في الوطن العربي، ولكن أين هو ذلك التمييز؟ فبلاد الشام والعراق ليس فيها تمييز، وأعمال العنف في العراق ضد المسيحيين هي نتيجة ظروف الإحتلال ولا يعرف بالضبط من يقوم بها، وقد تعرّض المسلمون

لأضعاف ما تعرض له المسيحيون، أما في مصر فإن هناك تمييزاً لكن من خلق هذا التمييز؟ فكما تقدم أن هذا التمييز لم يكن موجوداً في زمن جمال عبد الناصر، إنما وُجد في نظام السادات وحسني مبارك، ولذا ينبغي التعاطي مع قضية التمييز على أساس هذه المعطيات.

د. عبد الله الموسى

أشير هنا إلى الوعي الجمعي عند المسلمين، فهو يكتنز بقدر كبير من الاحترام والتقدير للمسيحيين، فهم الأقرب إليهم، وهم الذين ساهموا في الحضارة العربية الإسلامية ثقافة ولغة وعلماً، وانضووا في ميادين الدفاع عن هذه الحضارة، خصوصاً في الحروب الصليبية.

ولكن يبدو أن هذه التخوفات كانت موجودة قبل الربيع العربي، كما هو الحال بعد الربيع العربي، ولربما سمح هذا الربيع بظهورها، وهذا شيء إيجابي للنقاش، لماذا تثار مثل هذه التخوفات في هذا الوقت بالذات؟ هل لنا أن نتساءل عن ذلك؟ ونريد أن نتساءل أيضاً عن هذه التخوفات، ويبدو من الندوة أن أحد هذه المظاهر التي يجب التركيز عليها هو هجرة المسيحيين العرب إلى خارج الوطن العربي، فهل هنالك أرقام تشير إلى وجود هجرة زادت بعد الربيع العربي؟ ما هي المقارنة قبل الربيع العربي؟ ما هي مقارنة نسبة الهجرة بين المسلمين وأقرانهم المسيحيين في الوطن العربي إلى الخارج؟

الأنبا يوحنا قلته

إن ثقافتنا القَبلية- مسلمين ومسيحيين- شكّلت نوعاً من أنواع التمييز، فالتمييز أنواع: تمييز ديني وتمييز نفسي، ولكن لا يوجد تمييز نظري ولا فلسفي ولا

منهجي في ميراث كلا الطرفين، فنحن بانتظار جيل جديد متفتح يتقبل العالم، ونحتاج إلى تغيير جذري من الأحفاد ومن الجذور حتى يخرج جيل أفضل منا.

اللواء محمود إرديسات

إن قضية تعلق المسيحيين بالنظم السابقة أصبحت خلفنا، ولا بد أن ننظر إلى المستقبل، وتلك الأنظمة السابقة لم تقم بحماية المسيحيين ولا المسلمين، بل ظلمت الطرفين، وهذه عملية سياسية، وهي استخدام سياسي لهذا الموضوع، فتخويف المسيحيين من الجديد عالق بأذهاننا من النظم السابقة.

أما دولة المواطنة فنحن المسلمين نطالب بها قبل المسيحيين، فهي ليست من أجل المسيحيين، بل من أجل القضاء على أي نوعٍ من أنواع التهميش أو التمييز.

وأما بالنسبة لقضية تطبيق الشريعة التي هي مرجعية الدولة لدينا نحن المسلمين، فإنني أدعو إلى التفريق بين الشريعة وبين فهم الشريعة، حيث يمتلك الإخوان المسلمون اليوم نظرية معينة في تطبيق الشريعة، ولكننا قد نقف أمام حركة إسلامية أخرى غداً تنجح في الانتخابات وتحمل رؤية مختلفة لتطبيق الشريعة، وتعريفاً مختلفاً للدولة، فالشريعة هي الشريعة، ولكن تختلف نظرة المسلمين لطريقة تطبيقها، والدولة هي الدولة، ولكن تعريفها يختلف بيننا.

د. عماد جاد

بعيداً عن أسطرة ٢٥ يناير، إلا أن الوضع اليوم لا يقارن مطلقاً مع ما كانت عليه الحال أيام حكم مبارك، بالرغم من كوننا لم ننته بعدُ من عملية التحول الديمقراطي.

أما بالنسبة لنظرة المسيحيين في مصر لعلاقتهم مع المسلمين، فإن السبب الرئيس للخلاف بين البابا شنودة وحكم السادات، ومن بعده مبارك، هو أن شنودة رفض مباركة التطبيع مع إسرائيل، أو حتى الاجتماع بإسرائيليين والحديث معهم، وأدى ذلك إلى وضعه قيد الإقامة الجبرية، فكان دائماً يحافظ على تقديم العلاقة مع المسلمين، رغم الأحداث الطائفية التي جرت في تلك الفترة في عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦.

د. كامل أبو جابر

إننا- مسلمين ومسيحيين- نريد برنامجاً عملياً لتطبيق شعار "الإسلام هو الحل"، فنحن نقبل الإسلام ودولة المسلمين، فهي الدولة التي نعرفها، والتي وُلِدنا فيها، بل وَوُلد أجدادنا فيها.

أما بالنسبة لقضية تهجير المسيحيين، فهذا لم يحدث نتيجة الربيع العربي، ولا بسبب الإسلام ولا المسلمين، بل إن هذه العملية مستمرة منذ بدايات القرن التاسع عشر، وبالمناسبة فإن الهجرة مستمرة من قِبَل المسلمين والمسيحيين.

وبالتطرق لدور إسرائيل فنحن لا نبالغ في ذلك، فمن الذي دمّر السودان؟ ومن الذي دمّر العراق؟ من كان خلف الفتنة في لبنان عام ١٩٧٥، والتي كان يخطط لها في مجلس الوزراء الإسرائيلي منذ ١٩٥٤؟ من الذي وضع خطة لتفكيك العالم العربي بشكله الجديد؟

إن إسرائيل والعالم الغربي وصلا لقناعة بعد حرب عام ١٩٦٧، وبعد النصر الكاسح لإسرائيل والهزيمة الكاسحة لنا، والرفض العربي التلقائي لمواطني الدول العربية، أقنعت العالم الغربي وأقنعت إسرائيل بأنه لا بد من تفتيت العالم العربي،

ولا بد من القضاء على العروبة، وأحد أهم أسباب بقاء العروبة هو أن المسيحيين العرب الذين شاركوا إخوانهم المسلمين في الدفاع وفي التصدي للاستعمار.

إن ضرورة تعديل وإدخال مناهج للتربية والتعليم تدفعنا كمسيحيين إلى مد يد التعاون إلى جماعة الإخوان المسلمين، وإلى العلماء المسلمين في بناء تلك المناهج، ذلك التعاون هو الضمانة العملية لبناء مناهج متوازنة في تناول العلاقة الإسلامية المسيحية لتفادي مخاطر الغد، ولتجنيب الأجيال القادمة أي خلافات طائفية تضعف وحدتنا وقوتنا.